إحياء النفوس باستدراك ما فاتها رغبةً في التعويض

العشر الأواخر..

المؤمن يعلم أن هذه المواسم عظيمة والنفحات فيها كريمة لذا فهو يغتنمها ويرى أن من الغبن تضييعها

غداً تُوَفى النفوس ما كسبت ويحصد الزارعون ما زرعوا إن أحسنوا أحسنوا لأنفسهم وإن أساؤا فبئس ما صنعوا

من رحمة الله بالعباد وهو الغني عنهم أن جعل أفضل أيام رمضان آخره؛ اذ النفوس تنشط عند قرب النهاية، وتستدرك ما فاتها رغبة في التعويض، والعشر الأواخر هي خاتمة مسك رمضان، وهي كواسطة العقد للشهر لما لها من المزايا والفضائل التي ليست لغيرها.

ولذا كان رسول الله يحتفي بها احتفاءً عظيمًا، ويعظمها تعظيمًا جليلاً، وما ذاك الا لعلمه بفضلها وعظيم منزلتها عند الله تعالى وهو أعلم الخلق بالله وبشرعه المطهر.

لماذا نستغل العشر الأواخر؟

– ان المؤمن يعلم بأن هذه المواسم عظيمة، والنفحات فيها كريمة؛ ولذا فهو يغتنمها، ويرى أن من الغبن البين تضييع هذه المواسم، وتفويت هذه الأيام، وليت شعري ان لم نغتنم هذه الأيام، فأي موسم نغتنم؟! وان لم نفرغ الوقت الآن للعبادة، فأي وقت نفرغه لها؟!

لقد كان رسول الهدى –عليه الصلاة والسلام– يُعطي هذه الأيام عناية خاصة ويجتهد في العمل فيها أكثر من غيرها؛ ففي صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها «أن النبي كان يجتهد في العشر الأواخر ما لا يجتهد في غيرها»، «وكان اذا دخل العشر شد مئزره، وأحيا ليله، وأيقظ أهله» (متفق عليه من حديث عائشة رضي الله عنها)، وفي المسند عنها قالت: «كان النبي يخلط العشرين بصلاة ونوم، فإذا كانت العشر شمر وشد المئزر».

أيها الناصح لنفسك: تذكر أنها عشر ليال فقط تمر كطيف زائر في المنام، تنقضي سريعًا، وتغادرنا كلمح البصر، فليكن استقصارك المدة معينًا لك على اغتنامها.

تذكر أنها لن تعود الا بعد عام كامل، لا ندري ما الله صانع فيه، وعلى من تعود، وكلنا يعلم يقينًا بأن من أهل هذه العشر من لا يكون من أهلها في العام القادم، أطال الله في أعمارنا على طاعته.

وهذه سنة الله في خلقه «انَّكَ مَيِّتٌ وَانَّهُمْ مَيِّتُونَ» [الزمر: 30]. وكم أهلكنا الشيطان بالتسويف وتأجيل العمل الصالح! فها هي العشر قد نزلت بنا، أبعد هذا نسوِّف ونؤجل؟!

تذكر أن غدًا تُوَفى النفوس ما كسبت، ويحصد الزارعون ما زرعوا، ان أحسنوا أحسنوا لأنفسهم، وان أساءوا فبئس ما صنعوا.

تذكر أن فيها ليلة القدر التي عظمها الله، وأنزل فيها كتابه، وأعلى شأن العبادة فيها، فمن قام ليلة القدر ايمانًا واحتسابًا، غفر له ما تقدم من ذنبه» (أخرجه الشيخان).

والعبادة فيها تعدل عبادة أكثر من ثلاث وثمانين سنة، قال تعالى: «لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ» [القدر:3].

فلو قدر لعابد أن يعبد ربه أكثر من ثلاث وثمانين سنة ليس فيها ليلة القدر، وقام موفق هذه الليلة وقبلت منه، لكان عمل هذا الموفق خير من ذاك العابد، فما أعلى قدر هذه الليلة! وما أشد تفرطنا فيها! وكم يتألم المرء لحاله وحال اخوانه وهم يفرطون في هذه الليالي وقد أضاعوها باللهو واللعب والتسكع في الأسواق، أو في توافه الأمور!!

تذكر انك متأسيًا بخير الخلق محمد، وقد تقدم بعض هديه خلال العشر، فاجعله حاملا لك لاغتنام هذه الليالي الفاضلة.

أعمال يجتهد فيها الصادقون خلال العشر

القيام في هذه الليالي، وفضل قيامها قد جاءت به النصوص المعلومة، واجتهادات السلف يعلمها كل مطلع على أحوالهم، بل ومن عباد زماننا من سار على هديهم.

يذكر أحد الاخوة أن رجلا معروفًا في مسجد النبي يصلي التراويح مع الامام ثم يتنفل بالصلاة الى صلاة القيام، ثم يصلي مع الجماعة صلاة القيام ثم يصلي الى قبيل الفجر، هذا ديدنه كل عام.

أرأيت الهمة؟! هل عرفت كم نحن كسالى؟!

ومن مشايخنا من يختم القرآن في هذه العشر كل ليلتين مرة في صلاة القيام.

ويبقى الأمر المهم، ما الذي جعلهم يقومون وننام؟ وينشطون ونكسل؟ انه الايمان واليقين بموعود الله الذي وعد به أهل القيام، ولهذه الليالي مزايا على غيرها، أضف الى اللذة التي تذوقوها حتى آثروا القيام.

وما أجمل ما قاله بعض العلماء عن لذة المناجاة، حيث قال: لذة المناجاة ليست من الدنيا انما هي من الجنة، أظهرها الله تعالى لأوليائه لا يجدها سواهم.

ولتعلم –يا رعاك الله– أن البعد عن الذنوب والمعاصي أثر في التوفيق للطاعة، فالطاعة شرف ورحمة من الرحمن لا ينالها الا أهل طاعته.

فلندع عنا التواني والكسل، ولنسعَ للجد في العمل، فعمًا قليل نرحل، وبعد أيام نغادر هذه الدنيا، ونخلفها وراءنا ظهريًا، فلماذا التسويف؟!

اغتنمها في الدعاء: فدعاء ليلة القدر مستجاب، تذكر حاجتك لربك ومولاك، فمن يغفر الذنوب الا هو؟ ومن يُثيب على العمل الصالح الا الكريم سبحانه؟ ومن ييسر العسير، ويحقق المطلوب ويجبر المكسور الا صاحب الفضل والجود؟

فاغتنم هذه الفرصة، فرُبَّ دعوة صادقة منك يكتب الله لك رضاه عنك الى أن تلقاه، ولا تنسى الدعاء لاخوانك فهو من علامات سلامة القلب، وأيضا الدعاء للمسلمين من الولاة والعامة، ولا تحتقر دعوة؛ فرُبَّ دعوة يكون فيها الخير لأمتك.

ساعات السحر

في هذه العشر كثير من الناس يكونون مستيقظين هذه الساعة، وهو وقت شريف مبارك، وتعجب ممن يُمضون هذه الساعة في الأحاديث الجانبية، أو لا يرتبون قضاء حاجتهم الضرورية قبل هذا الوقت، فينشغلون بها عن اغتنامه.

أما الذين عرفوا قيمة هذه الساعة وعلو منزلتها فلا تجدهم الا منكسرين ومخبتين فيها، قد خلا كل واحد منهم بربه يطرح ببابه حاجته، ويسأله مطلوبه، ويستغفره ذنبه، ألا ما أجلها من ساعة! وما أعظمه من وقت! فأين المغتنمون له؟!

احرص على اعتكاف العشر كلها –دون التفريط بواجب من حق أهل وولد– فإن لم تستطع فلا أقل من الليالي أو ليالي الوتر، فقد كان هذا هديه –عليه الصلاة والسلام– في هذه العشر، ويُشرع للأخت المسلمة أن تعتكف كالرجال اذا تهيأت لها الأسباب، وأمنت على نفسها، أو على الأقل الليالي.

ومن بشائر الخير ما نراه من كثرة المعتكفين والمعتكفات في الحرمين وفي مساجد الأحياء في مدن وقرى العالم الاسلامي، ولتحرص على اغتنام هذا الوقت بالطاعة، وملئه بما ينفع، ومجاهدة النفس على ذلك.

أوصيك أخي بتطهير قلبك، فهذه أيام الطهارة والتسامح والتجرد لله تعالى، واجعل حظ النفوس جانبًا، فأنت ترجو المغفرة، وتأمل عفو ربك، وليكن شعارك «العفو عن الناس وعمّن ظلمك».

واجعل هذا من أرجى أعمالك هذه الليالي، ولله در ابن رجب في لطيفته بوم قال تعليقًا على حديث عائشة «اللهم انك عفو تحب العفو فاعفو عني»، اذ يقول: من طمع في مغفرة الله وعفوه فليعف عن الناس؛ فإن الجزاء من جنس العمل.

اجعل بعض مالك للصدقة ولا تحتقر القليل فهو عند الله عظيم مع صدق النية، وتذكر أن المال غاد ورائح، وما تنفقه باق لك، وأنتَ ترجو قبول دعائك هذه الليالي، وللصدقة أثرها في قبول الدعاء والاثابة على العمل، ومن أحسن الى عباد الله أحسن الله اليه.

ونحن في شهر عظيم، ينعم الله به على عباده، ويكرمهم بفضائل ومزايا تجعلهم من الله أقرب، فالأجور مضاعفة والعبادات متنوعة، وقد خصّ هذا الشهر العظيم بمزية ليست لغيره من الشهور، وهي أيام عشرة مباركة هُنّ العشر الأواخر، واليكم مع هذه العشر المباركات هذه الوقفات:

الوقفة الأولى: هذه العشر من أفضل ليالي العام ان لم تكن أفضلها على الاطلاق، وقد كان لرسولنا عناية خاصة بها، فإنه كان يحرص على العبادة والطاعة في العشرين الأولى من شهر رمضان ألا أنهيزداد عبادة وتقربًا الى ربه في هذه العشر الأواخر خاصة، وهولنا الأسوة والقدوة، تجد ذلك الأمر حين تخبر زوجه عائشة –رضي الله تعالى عنها– فتقول: «كان النبي إذا دخل العشر شد مئزره، وأحيا ليله، وأيقظ أهله». وكانت تقول رضي الله عنها: «كان رسول الله يجتهد في رمضان ما لا يجتهد في غيره» [3].

الوقفة الثانية: هذه العشر –أيها المبارك– مجال رحب وواسع للتزود من هذا الخير المتمثل بتنوع العبادات والطاعات المتاحة للمسلم: فمنها الصلوات المفروضات، والمسنونات، والصيام، ومنها قيام الليل والذكر، ومنها قراءة القرآن، ومنها –بل مما اختص بفضلها في هذه الأيام– الاعتكاف؛ ففي الصحيحين عن عائشة –رضي الله عنها– أن النبي كان يعتكف العشر الأواخر من رمضان حتى توفاه الله تعالى. وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه «كان رسول الله يعتكف في كل رمضان عشرة أيام، فلما كان العام الذي قبض فيه اعتكف عشرينا». وانما كان يعتكف النبي في هذه العشر التي يُطلب فيها ليلة القدر؛ قطعًا لأشغاله، وتفريغا لباله، وتخليًا لمناجاة ربه وذكره، والتقرب اليه ودعائه.

فان لم يستطع المسلم أن يعتكف العشر كاملة فليحرص على الأوتار منها، أو ليغلبَنّ في أن يلبث شيئا من الوقت في المسجد، فقد عَدّ ذلك بعض أهل العلم من الاعتكاف، وفضل الله واسع، وخيره كثير.

فليحرص أحدنا على الفرائض وعلى النوافل وليبشر، فالبشرى جاءت من الحبيب المصطفى حينما أخبر في الحديث القدسي عن ربه أنه قال: «وما تقرب عبدي اليّ بشيء أحب اليّ مما افترضته عليه، ولايزال عبدي يتقرب اليّ بالنوافل حتى أحبه، فاذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها. ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه».

الوقفة الثالثة: اجتهد –يا رعاك الله– في تحري ليلة القدر والاستعداد لها في هذه العشر، فقد قال الله تعالى: «لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ» [القدر: 3]. والف شهر مقدارها بالسنين ثلاث وثمانون سنة وأربعة أشهر. قال النخعي رحمه الله: العمل فيها خير من العمل في الف شهر.

ثم ان النبي قال: «من قام ليلة القدر ايمانا واحتسابًا غفر ما تقدم من ذنبه». وهذه الليلة المباركة في العشر الأواخر، كما قال النبي: «تحروا ليلة القدر في العشر الأواخر من رمضان».

وهي في الأوتار أقرب من الأشفاع؛ لقول النبي: «تحروا ليلة القدر في الوتر من العشر الأواخر من رمضان».

وهي في السبع الأواخر أقرب؛ لقوله: «التمسوها في العشر الأواخر، فإن ضعف أحدكم أو عجز فلا يُغلبَنّ على السبع البواقي».

وهذه الليلة لا تختص بليلة معينة في جميع الأعوام، بل تنتقل في الليالي تبعًا لمشيئة الله وحكمته. قال الحافظ ابن حجر –رحمه الله– عقب حكايته الأقوال في ليلة القدر: «وأرجحها كلها أنها في وتر من العشر الأواخر وأنها تنتقل». وللامام النووي كلام في هذا المعنى.

«قال العلماء: الحكمة في اخفاء ليلة القدر ليحصل الاجتهاد في التماسها، بخلاف ما لو عينت لها ليلة لاقتصر عليها». وعليه فاجتهد في قيام هذه العشر جميعًا، وأكثر من الأعمال الصالحة فيها، وستظفر بها يقينًا باذن الله.

ومن هذا المنطلق فلا يلتفت الى ما يشاع كل عام أن فلان أو فلان رآها في المنام في ليلة يحددها، فان هذا المتحدث كأنه يقول للناس: لا تقوموا الا هذه الليلة، ولا تعبدوا الله الا في هذه الليلة، وهذا تخرُّص واضح، وادّعاء ليس عليه دليل.

واذا كانت أخفيت عن النبي، فمن باب أولى أن تخفى عن غيره؛ أخرج الامام مسلم في صحيحه عن أبي سعيد الخدري قال: «اعتكف رسول الله العشر الأوسط من رمضان يلتمس ليلة القدر قبل أن تبان له، فلما انقضين أمر بالبناء فقوّض. ثم أبينت له أنها في العشر الأواخر، فأمر بالبناء فأعيد. ثم خرج على الناس فقال: يا أيها الناس، انها كانت أبينت لي ليلة القدر، واني خرجت لأخبركم بها، فجاء رجلان يحتقّان [11] معهما الشيطان، فنسّيتها، فالتمسوها في العشر الأواخر من رمضان، التمسوها في التاسعة والسابعة والخامسة».

قال أحد رواة الحديث: قلت: يا أبا سعيد، انكم أعلم بالعدد منا. قال: أجل، نحن أحق بذلك منكم. قال: قلت: ما التاسعة والسابعة والخامسة؟ قال: اذا مضت فالتي تليها التنتان وعشرون وهي التاسعة، فاذا مضت ثلاث وعشرون فالتي تليها السابعة، فاذا مضى خمس وعشرون فالتي تليها الخامسة.

الوقفة الرابعة: ان من المتأكدات استحبابًا في هذه الأيام ما كان النبي يفعله: فقد كان النبيكان يوقظ أهله للصلاة في ليالي العشر دون غيره من الليالي، قال سفيان الثوري رحمه الله: «أحب اليّ اذا دخل العشر الأواخر أن يتهجد بالليل، ويجتهد فيه، ويُنهض أهله وولده الى الصلاة ان أطاقوا ذلك».

ان هذه العناية بأمر الزوجة والأهل والأولاد تجعل من البيت المسلم يعيش في روحانية رمضان هذا الشهر الكريم، عندما يقبل الأب والأم والبنين والبنات على الصلاة والعبادة والذكر وقراءة القرآن، ولتحفزهم على ذلك الخير؛ فمن دعا الى هدى كان له من الخير والأجر مثل أجور من اتبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئا.